**جامعة الجيلالي بونعامة (خميس مليانة)**

**محاضرة : قضايا في تاريخ الجزائر الحديث**

**التأثيرات التركية العثمانية في إيالة الجزائر (2)**

**الجانب الحضاري والثقافي**

إنّ نظرة فاحصة للمنقول من مؤثرات الحضارة التركية العثمانية والقنوات الّتي سلكتها إلى البلاد الجزائرية، تدلّنا على أنّ اختلاط الأهالي بالأتراك العثمانيين في عاصمة الإيالة وباقي أنحاء البياليك الّذي استمرّ قرونًا كان أحد أهمّ الجسور في عملية التواصل الحضاري ؛ وذلك أدّى إلى اقتباسهم شيئًا كثيرًا من الحضارة العثمانية في شتّى مناحي الحياة العامّة. ويبقى خير شاهدٍ على ذلك العدد الوافر من المصطلحات والكلمات التركية الّتي تزخر بها العامّية الجزائرية.

تجدر الإشارة إلى أنّه فيما يخصّ الجوهر - اللغة، العادات، والحضارة -، تأثّر المجتمع الجزائري الأهلي بعنصره البربري العربي الأندلسي، والمجموعات الريفية بدرجة أقلّ من المجموعات الحضرية.

وهذا ما سيكون محور دراستنا في الصفحات التالية من أجل أن تتضح الصورة ويبرز واقع العلاقات الاجتماعية الثقافية بين الأتراك العثمانيين ورعايا الإيالة الآخرين الّذي لا يمكن لأحد إنكاره. من أجل تلك الغاية، سنقوم بعرض مفصّل في شتّى المجالات للإرث اللغوي المنقول من اللغة العثمانية إلى اللهجات الجزائرية من خلال التواصل السياسي والامتزاج الاجتماعي الّذي ميّز عصر الدولة العثمانية :

**- البحرية.** جرى اشتقاق أسماء عثمانية لبعض المصطلحات البحرية شائعة على غرار ترسانة "دار الصناعة" والفنار "المنارة"، إلى جانب عدّة أنواع من الحبال الغليظة الّتي استخدمها العرب في البحرية مثل القومنة أو القوملة "الجُمال".

بالمثل، استفادت البحرية الجزائرية من خبرة الأتراك العثمانيين على صعيد آخر، كانت له أهميته الكبرى في الحياة الاقتصادية، والمتمثل في صناعة السفن ذات المجاذيف. فعنهم على سبيل المثال أخذوا صناعة طراز من المراكب سمي القادرغة "القادس" وآخر أصغر منه هو الغليوطة ؛ وهما سفينتان حربيتان كبيرتا الحجم كانتا مزوّدتان بعدّة صفوف من المجدّفين للمناورة، واستخدمتا في جميع الحملات البحرية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

**- التجارة.** تمّ كذلك اعتماد عدد وافر من المصطلحات الّتي تدلّ على أعمال تجارية محدّدة، ويعود ذلك في جانب كبير منه إلى المستندات والعقود التي كانت تكتب بين تجّار الإيالة والإداريين العثمانيين. ومن بين تلك المصطلحات، بازار "سوق مغطّى"، دفتر "سجل الحسابات"، ﭘﺎي "مناب، نصيب"، بقشيش "برطيل، رشوة".

**- الصناعات الحرفية.** انتظم أصحاب الحرف خلال العهد العثماني، بمدينة الجزائر وباقي المدن الجزائريّة، لا سيّما الحواضر الّتي نالت شهرة عريضة في مجال النشاط الحرفيّ مثل تلمسان وقسنطينة، في جماعات (طوائف حرفية) خاصّة بهم.

وكان على رأس كلّ جماعة أمين يتولّى مهام عديدة، حيث كان يحرص على جودة المصنوعات، يحارب الغشّ والمنافسة غير المشروعة ويعاقب المخالفين تباعًا سواء بالتعزير أو التغريم ؛ وبالإضافة إلى ذلك، يسوي الخلافات الّتي قد تنشأ بين مرؤوسيه، أو بين جماعته والجماعات الأخرى، كما يقوم أيضًا بدور الوسيط بين جماعته والبايلك في ما يخصّ تحديد الأسعار والرسوم المفروضة. وكان يعاضده في إدارته للجماعة عدد من المأمورين هم : الشاوش، الناطق الرسميّ للجماعة ويقوم مقام الأمين في حالة غيابه ؛ الخوجة، الكاتب الّذي يسجّل كلّ القضايا المتعلّقة بالجماعة ؛ والصايجي أو العدّاد، المسؤول على أموال الضرائب والمساهمات الّتي تودع في صندوق الجماعة.

**- صناعة الجلود.** عرفت الجزائر أيضًا بمنتجاتها الجلديّة المتنوّعة، و الأخصّ من نوع السختيان المدبوغ والمطرّز أحيانًا، والّذي كان يستخدم في صنع البلغة "خفّ"، والبابوج "حذاء بلا كعب"، والباشمق "صندل"، والتمّاق "حذاء رجالي طويل"، والشبرلة "حذاء نسوي"، وكذا الجزدانات والمقانب والألجمة والسروج الّتي تميّز الجزائريّون بمهارة في تصميم أشكالها وتطريزها.

**- صناعة الحلي.** في المدن الكبيرة كالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان، يلاحظ التأثير العثماني الكبير من خلال صناعة الحلي الذهبية الفاخرة من دمالج وأقراط وأطقم وغيرها مستلهمة من نماذج مشرقية عثمانية أساسًا.

**- صناعة الزرابي.** في منطقة سطيف، تصنع زربية قرقور ذات المحراب المعيّن المحفوف بتشكيلات زهرية، والّتي تعد من الأنواع الراقية والفاخرة ؛ وهي تعكس تأثير الأناضول من خلال ما تحويه من زهور وزخارف مماثلة.

**- صناعة النحاس**. رغم أنّصناعة النحاس- سواء كان نحاسا أصفرًا أو أحمرًا -، كانت موجودة خلال العصور السابقة، إلاّ أنّ هذه الصناعة المعروفة بجودتها تأثرت كثيرًا في إيالة الجزائر بالأنماط المتنوعة والأشكال الزخرفية المستوحاة من الدولة العثمانية ؛ حيث كانت النحاسيات تأخذ في العاصمة أو في تلمسان أو في قسنطينة عدّة أشكال مثل صينيات كبيرة تسمى بالسنيوات، بقارج "أباريق الشاي والقهوة"، سطول، مهاريس، فوانيس، مرشات أو حتّى بخاخات العطر التقليدية.

أمّا فيما يخصّ البرونز، فقد اعتمد في قسنطينة والجزائر مقرعات الأبواب ذات الشكل الحلقي المعروفة في تركيا، على عكس تلمسان الّتي تبنّت الطراز الأندلسي المزخرف.

**- صناعة النسيج.** اشتهر العثمانيون بنسج ملابس الحرير بأنواعه المختلفة مثل المخمل (القطيفة) والإبرسيم والجوخ الموّشى بالذهب. وكان هذا بفضل الموروث البيزنطي الّذي جعل من بورصة عاصمة للصناعات الحريرية في الإمبراطورية. وبإيالة الجزائر، كانت مدينتي تلمسان والجزائر في العهد العثماني أهمّ مراكز صناعة المنسوجات الحريرية ؛ ومن المنتجات الّتي اشتهروا بها نجد الأحزمة الحريريّة ذات الحواشي المزيّنة بالألوان اللامعة الحمراء والبنفسجيّة، والأحزمة المرصّعة بالذهب والفضّة الّتي عرفت "بالحزام الشاوشي"، و"الحزام الكريتلي"، إضافةً إلى العمائم الحريرية والصدريات الرجالية المعروفة بالبديعية. كما كان للحاكة منتجات أخرى من الألبسة الفاخرة هي جبّة الجيابادولي، القفطان والكركه (المعروف في اللغة الدارجة بالكراكو) الّتي كانت ترتديها النساء في المناسبات. وكذلك اشتهر العثمانيون بصناعة الجوارب والقواويق (جمع قاووق)، وهي قلانس طويلة كان يلبسها الأتراك.

**- النجارة الراقية.** قام النجّارون في الجزائر بإنجاز مصاريع أبواب كبيرة بتجميع لويحات بشكل هندسي راقي، كما قاموا بالتفنّن في نجارة الدرابزونات، المشربيات والسقوف المنقوشة والمزوّقة، مقتبسين بذلك إلى حدّ بعيد التقنية والزخرفة العثمانية.

**- العمران.** يظهر الأثر العثماني جليًا في العمران خصوصًا في بعض الأضرحة والحمّامات والمساجد والقلاع والأبراج والطبخانات والثكنات الّتي نجت من التدمير الاستعماري، مثل الجامع الجديد الّذي بني خلال الفترة (60-1665) وفق الطراز الأناضولي، وبرج مولاي حسن (حصن الإمبراطور) المهيب الّذي بني منتصف القرن السادس عشر، وثكنة باب عزّون الجميلة الّتي بنيت في نفس الوقت تقريبًا ؛ وكلّها تعتبر نماذج حيّة للتأثير العمراني العثماني في الجزائر.

أمّا فيما يخصّ المنازل والقصور، فيبرز في اعتماد البناء من عدّة طوابق، والنوافذ القليلة المطلّة على الخارج والمسيّجة بالقضبان، واستخدام القبب والإيوانات، وكذا التزيين بالزخارف والخطوط والأشكال الهندسية المقتبسة من الفن العثماني.

**- الخطّ**. أدخل العثمانيون خطوطهم المعروفة بالديواني (الهمايوني)، والرقعة والسياقت مع وفود العلماء والكتّاب الإداريين (الخوجات) والخطّاطين المتخصّصين، أمثال حسين بن عبد الله الجزائري، وكان من أشهر الخطّاطين في مدينة الجزائر بكير حفيظ خوجة، وكذلك إبراهيم الجركلي الّذي نقش الآيات المحفورة في جامع كتشاوة والمعلّم اللابلابجي الّذي نقش باب جامع علي بتشين ؛ وقد اشتهرت أسرة ابن صارمشيق التلمسانية بهندسة البناء والنقش والخطوط، ومن بينهم محمّد بن صارمشيق الّذي وجدت نقوشه على عدّة آثار عمرانية ؛ ومن قسنطينة، اشتهر أبو عبد الله بن العطّار بجودة الخطّ، وهو من أسرة تولّت الوظائف الرسمية.

**- الزراعة.** لقد نشر الأتراك زراعة خضر لم تكن معروفة كثيرًا من قبل في الجزائر مثل البنجار (الشمندر الأحمر) والبراصة (الكرّاث)، بالإضافة إلى الملوخية ؛ وفي هذا الصدد، تجدر بنا الإشارة إلى أنّهم طوّروا إلى جانب ذلك طرق حفظ الأغذية مثل الطرشي (المخلّلات) والقاورمة، وكذا صناعة الثلج المستخرج من مطامير الثلج في نقاط معيّنة من جبال الأطلس البليدي.

**- الطبخ.** جرى اعتماد بعض الأطباق الشهية و المتنوعة المتداولة في المطبخ التركي على غرار أطباق اللحوم مثل الضولمة والقبامة والبرانية (بريان) والطباهج والكباب والباصطرمة (باش طرمة) والكفتة واليهني (يخني) ؛ والعجائن مثل البوراك "فطيرة" والبرغل "جريش القمح" والرشتة "إطرية"، إلخ. ؛ وأيضًا الحلويات مثل البالوزة والسطلاج (نوع من المحلّبي) والصامصة والباقلاوة واﻟﭽﺮاك والفانيذ والكفتة ؛ وكذا المرطبات مثل الخشاف والشربات والبوزة.

**- الحمّام التركي.** الحمّام التركي أحد حمامات الاغتسال والنظافة الشاملة المشهورة. فلقد كان الأتراك العثمانيون يؤمنون بضرورة أخذ حمامات هواء ساخن حفاظاً على الصحة. وقد نشر الانكشارية هذه العادة عبر معظم أجزاء الإمبراطورية العثمانية، واستطاب رعايا الدولة أخذ مثل هذه الحمَّامات، وأطلقوا عليها اسم الحمّامات التركية.

وعملية الاستحمام تبدأ بدخول المستحمّ أولاً إلى غرفة تعرّق ذات جوّ جاف عند درجة حرارة سبعين، ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى غرفة بها بخار رطب درجة حرارتها تزيد على خمسين، ويجعل البخار الرطب المستحمّ يفرز العرق بغزارة، ثمّ يُغسل الجسم بالماء الدافئ والصابون، فيما يقوم عامل الحمّام بإجراء عملية تدليك لعضلات الجسم. وبعد أن يخضع المستحمّ إلى الدلك والتنظيف التامّ، يقوم المستحمّ بتجفيف جسده باستخدام الفوط. وكان يتمّ أحياناً تنظيف باطن القدم باستخدام نوعٍ من الحجارة المسامية. وبعد ذلك، يأخذ المستحمّ حماماً بارداً أو يسبح، ثمّ يخلد للراحة حتى تعود درجة حرارة جسمه إلى المعدَّل الطبيعي.

**- الموسيقى.** لم تعرف موسيقى الأتراك غير العسكرية الّتي تمتاز بحزن نغمتها وتأثّرها بالبيئة الصوفية شيوع ورقي الموسيقى الأندلسية ؛ ونذكر من الآلات التركية : الفضل، وهو آلة طويلة العنق تشبه الربابة، وهناك آلة أخرى ذات أوتار تلامس بأصابع اليد أو بعصى رقيقة، وكذا الناي الّذي يشبه إلى حدٍّ ما القصبة ؛ وبالإضافة إلى ذلك، كان لدى الحكّام العثمانيين فرقة موسيقية عسكرية، المهترخانة تعرف في تراثنا أيضًا بالزرناجية، تعزف لهم في المناسبات السياسية والحربية و الاجتماعية وكذا الدينية مثل المولد النبوي والعيدين، وكان عدد أفرادها بالإضافة إلى المجموعة الصوتية قد يصل إلى 30 عازفًا، ومن آلاتها الموسيقية الأساسية الزرنة (مزمار) والطبل والصنوج الكبيرة، وتضاف لها في بعض الأحيان آلتي الطار والفضل.

**- الأوقاف.** خلال العهد العثماني، عرف نظام الوقف تطوّرًا كبيرًا، حيث رسّخه الحكّام الأوائل، وسار عليه سائر الحكّام الّذين جاءوا بعدهم. ولقد شهدت جلّ المدن الجزائرية ازدهار الأوقاف كمؤسّسة لها إجراءات خاصّة وهياكلها المنظّمة بشكل مثير للانتباه ؛ ونرجّح أنّ يكون ذلك عائد إلى المذهب الحنفي المتّبع من قبل الأتراك العثمانيين، بحيث عرفت الأوقاف بإسهامها الكبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بل والإدارية أيضًا، وأضحى تسيير الحواضر (المدن) وفحوصها مرتبطًا أشدّ الارتباط بها.

د. محرز أمين